بقايا العربة

قصة مصرية

بقلم : فؤاد القصاص

القاهرة فى ليلة آخر ديسمبر ..

فى قمة جمالها ورونقها .. حتى لتبدو كعروس فاتنة لم تبق غير لحظات وتزف الى فارس الأحلام ..

والشوارع تموج بالناس .. من كل نوع .. يحلمون بلحظات هيئة يختلسونها من عمر الزمن ! ..

وملك الليلة .. بابا نويل .. بدقنه البيضاء كالثلج وضحكته الصافية قد احتل عرشه خلف الواجهات الزجاجية .. يسبح فى الاضواء الملونة .. وفى عجيبه رقة وحنان وحب لا تكون الا فى عيون الملائكة ! ..

ووسط هذه الكتل المتدفقة من البشر كان (عادل) يشق طريقه فى صعوبة حتى وصل الى منتصف شارع سليمان باشا .. فوقف يلتقط انفاسه والزحام يكاد يخنقه .. ونظرات بابا نويل الصافية تتساقط فى قلبه .. كقطرات من السعادة !

ما اعجب بابا نويل هذا ! . انه لا يعيش كل عام غير ليلة واحدة .. هى كل عمره .. ولكنه ـ حتى هذه الليلة اليتيمة ـ يمنحها راضيا سعيدا تملأ قلوب الناس بالبهجة وحب الحياة ! ..

انه لا يبخل بعمره القصير فيجود به فى سخاء على الناس ينسوا احزانهم وجفاف حياتهم .. أو لعلهم يتحققون من لوعة فراق العام القديم ورهبة لقاء العام الجديد ! ..

وتنهد عادل فى اسى . كانما قد حرك المطر شجونه ! ..

وقال لنفسه وهو يمضى فى طريقه :

ـ كم من الناس يهبون حياتهم من أجل المجموع .. مثل بابا نويل هذا ! .

ونظر فى ساعة يده كانما ليهرب من افكاره .. وقالت له الارقام .. انه بعد ساعة .. يموت عام ويولد عام ! ..

واسرع من خطاه .. لقد تأخر عن رفاقه ـ مجموعة من اصدقاء الصبا ـ الذين واعدهم على ان يحتفل معهم بلقاء العام الجديد ! .

وبعد قليل كان يدخل عمارة كبيرة

فى ميدان سليمان باشا ولم يلبث ان احتوته شلة أنيقة فى الدور السابع ..

واستقبله اصدقاؤه بسيل من كلمات العتاب !

ـ لماذا تأخرت ؟

ـ أين كنت ؟

ـ ومع من ؟

ـ لا بد أنها واحدة ..

وأسكتهم باشارة من يده وهو يقسم لهم انه كان نائما ولم يستيقظ الا منذ ساعة وبعضها ،ولكنهم مضوا يسخرون منه فى موجة مرحة من التهريج ، وقد بدا عليهم انهم على وشك أن يثملوا لكثرة ما غبوا من الخمر .. فالزجاجات امامهم قد ذهب منها اكثر مما بقى فيها ! ..

ومضت الدقائق فى حديث متصل كثيرا ما تشعب ، ولكنه ظل يدور حول حياتهم وذكرياتهم ايام الدراسة .. وغراميات صباهم يوم كانت القلوب مرعة بحب الحياة خالية من هموم الايام .. ومسئولية اليوم والغد التى ما أن حملوها حتى سرقت أعمارهم واحلامهم والقت بهم على ابواب الاربعين .. رجالا مهمومين قد ضاع شبابهم ولم تبق منه غير شعيرات سوداء تجاهد فى صلابة لتبقى بين الجيش الزاحف من الشعر الابيض يعلن فى صرامة أن النهاية على الابواب !..

وبدأت الحسرة تنساب فى زفرات مكتومة من الأعماق فانطلقوا يهربون من الواقع بين أحضان الكاس ! ..

وكان الوقت قد اقترب من منتصف الليل حتى لم تبق غير دقائق .. ويذهب عام بكل ما فيه من أحداث وصور .. ويجىء عام .. بكل مافيه من مجهول ؟

وتسلل شعور بالكآبة الى نفوسهم فران عليهم الصمت .. وانطوى كل على نفسه .. والأسى يقطر من نظراتهم !

وفجأة رفع أحدهم كاسه وهتف فى مرح مصنوع :

ـ أنا اتحدى الفة ان يأتى .. تراهنون ؟

ولم يجبه أحد حتى ولا بابتسامة !

وعاد يقول وكأنه يخطب :

ـ مم تخافون يا جبناء ؟ من الموت ؟ لن تموتوا هذه الليلة .. انا اعدكم بشرفى ..

واطلقت الخمر لسانه فأخذ يهذى بكلمات من أسطورة قديمة تقول: ان من يحب لا يموت .. ثم دعاهم فى النهاية الى البحث عن الحب حتى يضمنوا الخلود ! .

وصفق له الجميع . وبدأ المرح يعود الى المكان من جديد ..

ونظر عادل الى ساعته .. كان الوقت منتصف الليل ..

واطفئت الأنوار .. وساد الصمت المكان .. وغرق كل فى أفكاره .. وعندما أضيئت الانوار معلنة مولد العام الجديد ، أخذ الصديق المرح ينقل نظراته بين الجميع فى حيرة .. ثم هتف بهم وقد استبد به الشك :

ـ لقد كذبت عليكم .. انا لا أضمن لكم الفرار من عزرائيل .. ولكنى ـ

واقسم لكم ـ اكتسب خطه السلام اكتشافا خطيرا ! ..

وسألوه في صوت واحد وقد علت الابتسامات شفاههم :

ـ ما هو ؟

ـ انكم ـ وانا معكم ـ ستموتون !

وأغرقوا جميعا في الضحك ..

ومضى الوقت في مرح وصخب ، حتى اذا اقتربت الساعة من الثانية صباحا نهض عادل لينصرف .. وقد أصبح الجميع سكارى .. الا هو فقد أبى أن يقرب الخمر في ليلته .. رغم الحاحهم !

وحاولوا أن يستبقوه معهم ، ولكنه أخبرهم بأنه سيستقل سيارته على الفور الى بور سعيد ..

ـ الى بور سعيد ؟ لماذا ؟

وقال باقتضاب وهو شارد النظرات :

ـ لدي موعد هناك ..

وتضايق الجميع غير مصدقين :

ـ في الفجر ؟

ـ مع من ؟

وانطلقوا في تعليقات ساخرة حول الحورية المجهولة التي يلتقي بها عادل في أول كل عام مع الفجر ..

وحاولوا أن يحملوه على أن يقول لهم من تكون هذه السعيدة ، ولكنه ضن عليهم بسره الكبير حتى لا تلوكه السنتهم بسوء .. وهم سكارى ! ..

وعندما أقبل الفجر بأصواته الوردية ، كان عادل يقطع الطريق من قلب بور سعيد .. الى المقابر ..

وأمام قبر مواضع لا يميزه سوى عما حوله سوى قطعة صغيرة من الرخام كتب عليها بمداد أسود : « فتحي كامل .. استشهد في بور سعيد » .. وقف عادل مطرقا برأسه لحظات .. وقد جاشت في صدره الذكريات !!

بورسعيد .. وقوات العدوان الثلاثي تطحنها من البحر والبر والجو .. وهي صامدة تقاتل في بسالة أسطورية .. وعادل واحد من شباب المقاومة الذين وفدوا على المدينة من العاصمة .. في يده سلاحه وفي قلبه ايمان لا يهتز الا بالنصر ! ..

وفي اليوم المشهود ، عندما بدأ العدو يلقي بقنوات المظلات على المدينة التي أبت ان تستسلم ، كان عادل يرابض مع رفاقه في مدخل بور فؤاد من جهة البحر .. عندما أقبل شاب يحمل مدفعا رشاشا وقال لعادل في صوت أشبه بالصراخ ، ان مظلات العدو بدأت تهبط في مطار الجميل ..

وجمع عادل رفاقه وانطلقوا مع الشاب المجهول نحو ميدان المعركة والحماس يكاد يطير بأقدامهم .. بينما عادل يرقب الشاب بنظرات محملة فيها الكثير من الاعجاب .. فقد كان وجهه هادئا لا يسم عن أثر للاضطراب أو الخوف ، وان كانت نظراته تشع بالتحدي والعزم !!

وهمس الشاب من بين أسنانه دون أن يلتفت نحو عادل :

ـ سنسوقهم .. هؤلاء الكلاب !

كان يتكلم بلهجة أبناء السواحل .. وسأله عادل عما اذا كانت له وحدة يقاتل معها ..

وهز الشاب رأسه علامة النفي ، ثم قال في بساطة ان أهله جميعا قتلوا في احدى غارات الأمس .. وانه ذهب الى معسكر المقاومة الشعبية فأعطوه سلاحا أقسم ألا يتركه حتى يثأر لأهله ، وحتى تنتصر المدينة ! ..

وانهى الشاب قصته القصيرة بأن اسمه فتحي كامل وبأنه كان طالبا في مدرسة نور سعيد الثانوية ..

واحس عادل بالفة عجيبة تربطه بفتحي .. لعلها حداثة سنه .. ولعلها حماسة المتدفق .. ولعلها الكارثة التي حلت بأهله .. أو لعلها المعركة الواحدة التي سيحوصان شعارها بعد لحظات دفاعا عن حرية وطنهما وكرامته ! ..

وبدأت طلقات الرصاص تقترب بصحبتها دوي انفجار القنابل وازيز الطائرات المنقضة .. وبعد قليل كانت الجماعة الصغيرة قد اصبحت في خط النار ..

وكانت المعركة في عنفوانها .. الشعب على الارض يقاتل في عناد عدو يفوقه في كل شيء .. كما وكيفا .. والطائرات المغيرة تكتسح المدافعين

برشاشاتها لتمهد مكانا لجنودها الهابطين ..

وبلا تردد ، ألقت الجماعة الصغيرة بنفسها في معمعة القتال .. يحاولون بمبرانهم تثبيت قوة للعدو تمكنت من الهبوط في طرف المطار واحتدت تقاتل لتثبت اقدامها .. ولكنهم لم يلبثوا أن دفاعهم عن نقطة ارتكازهم الا قليلا .. فقد استطاعت البرات المصرية المركزة أن تبيدهم عن آخرهم ..

وفجأة ، رأى عادل زميله فتحي يفر الى الخلف في سرعة ثم ينطلق بعدو بكل قوته في اتجاه جماعة من جنود العدو احدثت اهبتها لمهاجمتهم من الخلف ..

وكان فتحي ما يزال يعدو دون حذر وكأنه في مباراة للجري ، حتى اذا أصبح جنود العدو في مرمى نيرانه ، ارتكز على ركبتيه وبدأ يطلق مدفعه في عنف .. وبينما كان جنود العدو يتساقطون كالفراش ، كان عادل يسرع لنجدته .. ولكن فتحي ما ان رآه حتى صرخ فيه يطلب منه الانسحاب مع رفاقه الى موقف آخر بينما يقوم هو بحمايتهم .. في تلك اللحظة انقضت احدى طائرات العدو وفتحت نيرانها .. فسقط فتحي يسبح في بركة من الدم .. واسرع عادل نحوه ـ تحت وابل من رصاص العدو ـ فحمله بين ذراعيه وانطلق به بعيدا عن أرض المعركة ..

وفي المستشفى ، بدأ الاطباء يعملون في سرعة لانقاذ حياته، فبتروا له ساقيه وحاطوا جراحه .. ولكن حالته ازدادت سوءا .. وبدأت حياته توشك على المغيب .. لكثرة ما فقد منه من دماء ..

وتبادل الأطباء النظرات ، وقرأ كل منهم في عيني الآخر سؤالا واحدا يبحث عن كمية من الدم .. وارتسمت في عيني كل منهم نظرة يأس مريرة !!

وعندما أدرك عادل المأساة ، مد لهم ذراعه وطلب منهم ان يأخذوا من دمه ما يشاءون .. وأجروا تحليلا سريعا ثبت منه ان دم عادل من نفس الفصيلة التي يريدونها .. وترقرق الامل في العيون فقد بدا أن القدر يحابي الجريح .. الذي لم يلبث بعد عملية نقل الدم ان بدأ يسترد وعيه ..

ومضت الأيام ، وانتصر الوطن في معركة حريته .. وخرج العدو يجر أذيال هزيمته .. بينما بور سعيد المثخنة بالجراح قد أخذت تنفض عنها غبار المعركة وتمسح دمها من جديد !

وكان فتحي ما يزال طريح الفراش بالمستشفى تتأرجح حياته بين الأمل واليأس .. وجسده الضعيف المرهق فريسة لنوبات النزيف التي بدا انها تتآمر على حياته ..

وكان عادل يزوره بين الحين والآخر فيجلس اليه ساعات .. يحاول خلالها أن يملأ قلبه بالأمل وحب الحياة .. حتى ينتصر في معركته مع الموت ! ..

وفجأة ، وقعت الكارثة !

في ليلة آخر ديسمبر .. والوقت بعد منتصف الليل .. تلقى عادل حديثا تليفونيا يستدعيه سريعا الى المستشفى .

وبعد دقائق كان عادل واقفا أمام فراش فتحي والطبيب يخبره بأنه أصيب بنزيف شديد منذ ساعات وفشلت جميع المحاولات لانقاذ حياته

.. وانتابته عصبية كان لا يفيق منها الا ليردد اسم عادل ..

وحرك فتحي رأسه وفتح عينيه .. وعندما رأى عادل جامد ليبتسم .. فبدت ابتسامته في وجهه الشاحب كضوء القمر في ليلة غائمة ! ..

وهمس فتحي في صوت حائر :

ـ لقد أزعجتك ما فيه الكفاية .. انى ...

وقاطعه عادل وهو يربت بيده في حنان :

ـ لا تقل هذا .. ألسنا أصدقاء ؟ .

وهمس فتحي بصوته المرتعش الضعيف وهو يجاهد لتخرج الكلمات واضحة مسموعة :

ـ نعم أصدقاء .. لهذا أوصيك بأن ترعى في مدينتي .. بور سعيد ..

وهتف عادل وقلبه يتمزق :

ـ لا تتحدث عن الموت .. أرجوك .. انك ستعيش .. ستعيش ..

وابتسم فتحي في مرارة ثم همس وقد ازداد صوته ضعفا :

ـ هل تزورني .. ولو مرة كل عام ؟ .

وصرخ عادل في انفعال :

ـ لن تموت ! .. لن تموت ! .

وهمس فتحي في سخرية :

ـ هل خدعك الطبيب ؟ يا صديقي .. لن يجيء الفجر .. الا وأكون قد انتهيت ..

وقال عادل في رقة وهو يجاهد ليحبس دموعه :

ـ من قال هذا ؟

واومأ فتحي بالنفي من يده ثم مضى يقول :

ـ أنا أعرف نفسي .. عدني .. أن تزورني ..

وبدأ صوته يخفت .. وازداد شحوب وجهه .. واطفأ ما تبقى من بريق عينيه .. ولكنه استطرد في صعوبة :

ـ اني أرى الفجر ... الفجر .. الفجر ..

وسقط في غيبوبة ...

وانفجر عادل باكيا ...

ومضت ساعات جامد خلالها الأطباء بكل ما يملكون من علم ومعرفة لانقاذ حياته .. ولكنه ظل في غيبوبته ..

ومع الخيوط الأولى للفجر .. أسلم فتحي الروح ..

مع مشرق الصباح الجديد ، كان عادل يدلف بسيارته الى قلب القاهرة .. التي كانت ما تزال بائمة اثر سهرة الأمس الصاخبة .. فبدت لعينيه كعروس ارهقها عبث الليلة الاولى !

وغادر السيارة ، ومشى في بطء يتطلع الى الحوانيت المغلقة .. فرأى بابا نويل بدقنه البيضاء كالثلج مايزال واقفا خلف الواجهات الزجاجية .. انه مثله لم يعرف النوم في ليلته .. ولعله أيضا مثله يعيش هذه الليلة من كل عام .. من اجل ذكرى تملأ قلبه ولا يعرفها غيره !.

وشاب وأحس برغبة عاصفة الى النوم .. وتذكر أصدقاءه .. لا شك انهم يغطون الآن في نوم عميق .. بعد أن طال انتظارهم لعودته .. فلا ريب انهم كانوا يتقاسمون قصولا ملحا الى سماع ما حدث في ليلته .. مع حبيبته المجهولة التي سرقته من صحبتهم !!